رحيل عثمان سامبين الأب الشرعي للسينما الأفريقية

القامة الأدبية التي خلدتها السينما

علاء المفرجي

نعت قبل ايام الاوساط الادبية والسينمائية في افريقيا والعالم عثمان سامبين رجل الثقافة الافريقية البارز الذي قدم تصورا شاملا لحركة الانتاج الثقافي والفني بافريقيا السوداء عبر اكثر من ستة عقود من الابداع الأدبي والفني وبرحيله تكون أفريقيا قد فقدت احد اهم اعمدتها في مجال الابداع الانساني .

عثمان سامبين المولود عام ١٩٢٣ من اسرة صائد اسماك في قرية على ضفاف نهر كازماس في السنغال اختزنت ذاكرته الاساطير والطقوس ومنابع الفلكلور الافريقي والتي جعلت منه في طليعة الأدباء والفنانين الافارقة الذين اسثمروا التراث والفلكلور الافريقي في خدمة القضايا الثقافية والاجتماعية وفي تأكيد الهوية في مواجهة الوجود الكولنيالي .

واذا كانت الذاكرة الثقافية تحتفظ لسامبين باعتباره (ابو السينما الافريقية السوداء) فانه لم يلج بوابة الفن السابع الا في فترة متأخرة من حياته (درس السينما وهو في الاربعين من عمره) .. وكان دخوله هذا الفن من بوابة الادب الذي توجه كاحد اهم رموز الرواية والقصة الافريقية الى جانب وول سوينكا و نسيتوا اتشيبي وان لم يحظ بالشهرة العالمية لهما .

والسيرة الشخصية لهذا المبدع الاسطوري التي وثقت وعكست المشكل الاجتماعي النوعي الذي كان يعيق تنامي حركة التغيير الديمقراطي لا في السنغال حسب بل في جميع بلدان غرب افريقيا، تشي بسيرة انتاجه الادبي والفني المتميز وحرفيته العالية .

في بواكير حياته عاش سامبين حياة الصعلكة والفقر والتشرد وزاول الكثير من المهن صياداً، وحمالاً في ميناء، وميكانيكي سيارات وسائق تاكسي.. وخلال فترة الحرب العالمية الثانية جند في الجيش الفرنسي وقاتل في صفوف (القوات الفرنسية الحرة) وكانت هذه التجربة سبباً في خلخلة الكثير من المسلمات في ذهنه على عالم بلا عدالة ليعود الى بلاده بعد الحرب ليكون احد قادة اضراب عمال السكك الحديد والذي استوحى منه فيما بعد احداث روايته المهمة (قطع الخشب السماوية).

الانعطافة الأهم في حياة هذا المبدع الكبير عندما ابحر مختبئاً في سفينة بضائع الى فرنسا حيث بدأ حياة جديدة تجلت في ممارسته النشاط النقابي مدفوعاً من مشاهد البؤس للعمال الافارقة في المهاجر، ليصبح بعد فترة قائداً لاتحاد نقابات العمال الافارقة في مرسيليا في فترة تبوأت فيها الانتجلنسيا الافريقية في فرنسا مكاناً متميزاً تمثل في اقامة الانشطة الثقافية المختلفة، حيث وجد سامبين نفسه في خضمها في مواجهة دعاة تيار (الزنوجة) الذي مارس تأثيراً فكرياً مهماً وكان من ابرز دعاته الشاعر السنغالي ليبولد سنغور والمارتيني ايمي سيزير، انطلاقاً من وجهة نظره المتمثلة بان القضية ليست بالعودة الى الماضي، بل الانحراف منه كزوادة للمعركة من اجل التحرر.

الخطوة الأولى في المسيرة الابداعية لسامبين كانت في منتصف عقد الخمسينيات عندما صدرت اولى اعماله الروائية (عامل الميناء الاسود) .. والتي اكتنفها الضمور والضعف الفني الواضح، ولكنه سرعان ما ينطلق بادواته الفنية ويقوي عود حرفيته في روايته التالية (وطني.. شعبي الجميل) ثم (آلهة الاخشاب) وغيرها من الاعمال.

القصة القصيرة في اعمال سامبين تأخذ مكانة متميزة في مجمل ابداعه، بل قد بوأته كاحد اهم كتابها بالادب الافريقي المكتوب بالفرنسية بسبب (بساطة السرد، والمشهد البالغ التركيز والسبك الذي لا يتوفر عند قاص آخر) وليس غريباً ان وجدت عدد غير قليل من قصصه القصيرة طريقها الى السينما.

السيرة الشخصية لسامبين وسيرته الابداعية كروائي وقاص، فرضت ولوجه بعد سن الاربعين بوابة السينما حيث اختار دراسة مبادئها الأساس في موسكو باستوديو غوركي على يد احد اساطين السينما السوفيتية المخرج مارك دونسكوي والمنظر سيرغي غيراسيموف بداية ستينيات القرن المنصرم.. ويوقع بعد عودته الى افريقيا على اول افلامه عن امبراطورية سوهاري.. لكن ابداعه الحقيقي يتجلى مع الفيلم الوثائقي (الحوذي) عام ١٩٦٣ الذي تميز بتنوع مضامينه والتي تلتقي بالشكل الانساني والطموح الذي تعيقه المشاكل والهموم، والفقر، والاحلام المستحيلة.. وهو الموضوع الذي عزف عليه في فيلمه الثاني (نياي) وان كان بمعالجة مختلفة حيث التقاليد الصارمة في مجتمع ريفي متزمت.. ذهب فيه بعض النقاد الى مقارنته بموضوعات التراجيدية الاغريقية القديمة.

هذه التجربة السينمائية كانت كافية لمنح سامبين كسينمائي امتياز الريادة بل الابوة في هذا الفن في افريقيا، فهو مع فيلم (سوداء من ....) عام ١٩٦٦ يكون صاحب اول فيلم روائي افريقي طويل، ومع فيلم (الحوالة البريدية) ١٩٦٨ صانع اول فيلم افريقي ملون في تاريخ سينما افريقيا الاستوائية.

في فيلم (سوداء من ...) يكشف وبحرفية عالية الأساليب الاخراجية التي انتهجها في افلامه السابقة (الواقعية فيه لا تتعدى حيز الواقعة نفسها التي عندما اقدم المخرج على اخراجها صار البناء الفني للفيلم بناءً في غاية الرمزية) بحسب الناقدة والباحثة الروسية الينا كوليغ.

اما في فيلم (حوالة بريدية) والمقتبس عن احد اهم قصصه القصيرة، فقد اعتبر حينها حدثاً ثقافياً مهماً في السنغال ونقطة انعطاف مهمة في تاريخ تطور سينما افريقياالاستوائية.

في عام ١٩٧٣ ينجز سامبين عن قصة أخرى له فيلماً بعنوان (خالاً) وهو فيلم روائي طويل ثم (الهروب) و(سيدو) وكان آخر اعمال سامبين الفيلم الروائي الثاني عشر (مولاد) الجزء الثاني بعد فيلم فات كين ٢٠٠١ من ثلاثية تمجد حياة النساء (بطلات الحياة اليومية) كما يصفهن، فقد عمد في اغلب افلامه الى ابراز دور النساء واهميتهن في الحياة

وفيلم (مولاد) الذي انتزع عدداً من الجوائز اهمها جائزة (نظرة ما) في مهرجان كان ٢٠٠٤ وجائزة الجمعية الوطنية لنقاد السينما الامريكية، يحكي قصة امرأة سبق وان عرفت الختان في طفولتها الا انها استطاعت ان تقي طفلتها من الطقس الذي ينظم كل سبعة اعوام .. يدين سامبين في فيلمه هذا عادة ختان البنات المتفشية في العديد من المجتمعات الافريقية.

خلاف الكثير من الأدباء الذين اجتذبتهم السينما، فقد تلازم الادبي والسينمائي في ابداع سامبين بشكل لا انفصام فيه.. فاذا كانت لدى الآخرين ميدان تجريب .. فان الإبداع الأدبي لدى سامبين كان اختباراً أولياً لتجربته في السرد والتعبير واستبطان لدواخل الشخصيات التي تعاطى معها (النصوص الأدبية لسامبين مشحونة بافعال الحركة كما الصور البصرية الكثيفة، الشيء الذي يشعر القارئ في اثناء قراءته لتلك الاعمال بحقيقة رؤيتها سينمائياً قبل لحظة الكتابة، أو كأنما سامبين قد قام بكتابتها اصلاً بغرض تحويلها في المستقبل الى العروض السينمائية) كما يرى الناقد د. وجدي كامل صالح.

دخل سامبين ميدان الابداع السينمائي في وقت كان نتاجه الابداعي في الرواية والقصة القصيرة قد بوأه اسماً لامعاً في الادب الافريقي والعالمي، ويكفي روايته (آلهة الاخشاب) التي حظيت باهتمام ومباركة من أهم أدباء ومثقفي فرنسا لوي اراغون، وسيمون دي يوفو، وجان بول سارتر..

ويذهب الكثير من دارسي سامبين الى ان انصرافه من الادب الى السينما كان لقناعته بمحدودية تأثير الادب في بلدان مثل افريقيا ترتفع فيها نسبة الامية خاصة للادب المكتوب بالفرنسية.. فضلاً عن سبب يخص نتاج سمابين الادبي المكتظ بالصور والمعالجة البصرية والذي سهل من افلمته خاصة برؤية ومعالجة سامبين نفسه.

وبرحيل عثمان سامبين تكون الثقافة الافريقية قد فقدت آخر قاماتها، وتكون السينما الافريقية قد فقدت اباها الشرعي الذي نقلها الى العالمية و(ستحتفظ ذاكرة السينما في افريقيا السوداء لأزمنة طويلة بتلك المأثرة الكبرى التي استطاع تحقيقها عثمان سامبين في تاريخ السينما العالمية) كما وصفه المؤرخ السينمائي جورج سادول.

مشهد من فيلم (الحوذي)

آخر افلامه (مولاد)

فيلم صيني يفوز بالجائزة الذهبية لمهرجان النيل الدولي لافلام البيئة

القاهرة / وكالات

فاز الفيلم الصيني "اخي الشجرة" للي فينج بجائزة هبة النيل الذهبية لمهرجان النيل الدولي لافلام البيئة فيما حاز الفيلم الهندي "امتلاك" على جائزة هبة النيل الفضية.

أعلنت ذلك رئيسة لجنة تحكيم الافلام الروائية الطويلة الناقدة الفرنسية ميشيل ليفيو في الحفل الختامي الذي اقيم الاسبوع الماضي في قصر محمد علي في المنيل.

وقالت ليفيو ان اللجنة منحت الجائزة للفيلم الصيني "لتأكيده باسلوب سينمائي رفيع اهمية الماء كعنصر أساسي لحياة الانسان والبيئة وكذلك لجمالية التصوير والحبكة الدرامية".

كما اعلنت حصول الفيلم الهندي "امتلاك" على جائزة هبة النيل الفضية "لتركيزه على صعوبة تعايش المرأة وتناغمها داخل هذه البيئة".

ومنحت اللجنة جائزة لجنة التحكيم الخاصة مناصفة للفيلم المصري "جحيم تحت الارض" لنادر جلال الذي يعالج قضية الالغام التي زرعتها القوات المتحاربة في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٢ في منطقة العلمين شمال مصر والتي ذهب العديد من ابناء الشعب المصري ضحيتها وفيلم "مخرج" لليندينا سيكيراج من كوسوفو ويحكي عن معاناة الشعوب بسبب الحرب.

وفي مسابقة الافلام التسجيلية الطويلة والقصيرة اعلن رئيس لجنة التحكيم الدولية رئيس مهرجان قرطاج السينمائي فتحي الخراط فوز الفيلم الكويتي التسجيلي الطويل "المحميات الملاذ الأخير" بذهبية المسابقة في حين فاز الفيلم الايطالي "المياه" بالجائزة الفضية مع منح الفيلم الهندي "رقصة لاما" شهادة تقدير خاصة من لجنة التحكيم.

وبالنسبة للافلام التسجيلية القصيرة، فاز الفيلم العماني "شجرة القرم" بذهبية المسابقة وحصل على الجائزة الفضية الفيلم المصري "نداء الصحراء" وحصد الفيلم الجزائري "بين البحر والرمال" جائزة لجنة التحكيم الخاصة.

ومنحت لجنة التحكيم شهادة تقدير خاصة لكل من الفيلم المصري "همس النخيل" والفيلم الاندونيسي "رامبا".

وتم التنويه بشكل خاص بافلام عمانية انتجتها وزارة البلديات الاقليمية والبيئية والموارد المائية.

وقام وزير البيئة ماجد جورج الذي منح دعمه للمهرجان الى جانب رئيس المهرجان مصطفى حسين بتسليم الجوائز للفائزين كما اعلن ماجد في كلمته اختيار لاعب الكرة المصري محمود الخطيب والفنانة يسرا كسفيرين للبيئة بالاتفاق مع وزارة الثقافة المصرية.

يشار الى ان ٦٠ فيلما من ١٦ دولة عربية واجنبية شاركت في المنافسة على جوائز المهرجان الذي تنظمه جمعية الارتقاء بالذوق الفني لتنمية البيئة بالتعاون مع وزارة الثقافة المصرية.

في ستينية كان

السينما المستقلة تحلق بجناحي الحب والموت

جودت جالي

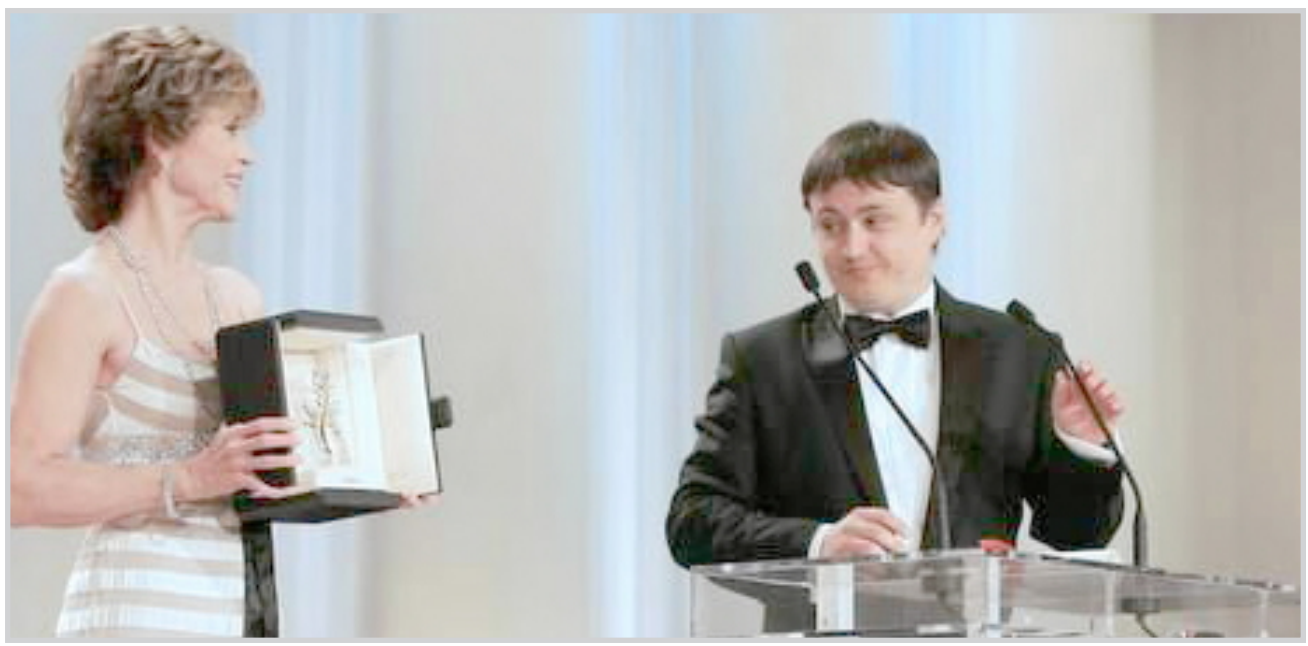

أن مهرجان كان لهذا العام هو مهرجان إبداعات المخرجين الذين لاينتمون الى الصف الأول بالمقياس التجاري، ومهرجان مخرجي البلدان (الصغيرة)، وهو كذلك مهرجان سينما المؤلف والسينما المستقلة، ولذلك فأن الثيمات التي تندرج تحت موضوعتي الحب والموت كانت سمة الأفلام المتنافسة وكونت ملامح المشهد السينمائي العالمي سواء كانت آتية من بلد (هامشي) أو كانت من بلدان المركز الصناعي السينمائي، أفلام تريد أثبات هوية شعوبها أو هوية مخرجيها في الأقل.

دخل ٢٢ فيلما المنافسة الرسمية من ثلاث قارات (غابت أفريقيا كليا هذا العام). حكايات الموت كما في أفلام كفيلم (لا بلد للشيوخ) للأخوة كوين، و (شارع الموت) للمخرج كوينتن تارينتينو، و (زودياك) لديفيد فينشر الذي سبق حديثنا عنه، وحكايات كبار السن المؤلمة (عدني) للصربي أمير كوستوريكا، و (بيرسيبولس) للأيرانية ماريانه سترابي مع فنسنت بارونو، وحكايات الأزواج المزقة (الليل لنا) لجيمس غراي، و (المغطسة والفراشة) لجوليان شنابل، و (تيليهيم) للأسرائيلية رافايل نجاري، وحصاد السكتة القلبية للآباء والأمهات في (ضوء صامت) للمكسيكي كارلوس ريغاديس و (الأقصاء) للروسي أندري زيفياغينتسيف، و رجة الأمال الدماغية للشابات (أغاني الحب) للفرنسي كريستوف أونوريه، أو أنقشاع الأوهام المثالية في (من الجانب الآخر) لفاتح آكين، ولم تستثن الأطفال من أهتمامها كما في (شروق سري) للكوري لي سانغ-دونغ ، والجنس المكشوف (العشيقة العجوز) للفرنسية كاترين بريا، و (غابة موغاري) لليابانية نعومي كاواسه ، وعن أخفاق الحياة الجديدة قبل أن تولد (٤أشهر و٣ أسابيع ويومان) للروماني كريستيان مونجيو، وصورت سحق الحياة للناس العاديين دون رحمة مثل (بارانويد بارك) لغوس فان سانت، و(رجل لندن) للهنغاري بيلا تار، كما صورت عذاباتهم (ألكسندرا) للروسي ألكسندر سوكوروف، و (تصدير..توريد) للنمساوي أولريش سيدل، و (نسمة) لكيم كي-دوك، وكان حضور الأفلام السياسية والتأريخية نادرا هذا العام بعكس العام الماضي، والطابع السائد تناول المواضيع الخصوصية الحميمة، ولعلنا نستطيع القول أن المهرجان حلق بجناحين هما الحب والموت، ذهبت جائزة السعفة الذهبية للروماني كريستيان مونجيو والجائزة الكبرى لليابانية نعومي كاواسه، وجائزة الأخراج لجوليان شنابل، وجائزة أفضل ممثلة للكورية الجنوبية جيون دو-يون (فيلم شروق سري) وجائزة أفضل ممثل للروسي كونستانتين لافرينينكو (فيلم الأقصاء) وجائزة السيناريو لفاتح آكين (من الجانب الآخر) وجائزة هيئة التحكيم لماريانه سترابي وكارلوس ريغاديس مناصفة أما الجائزة الخاصة بهذا العام فقط، جائزة الدورة الستين فقد حظي بها غوس فان سانت (فيلم بارانويد بارك) من الولايات المتحدة.

نود الحديث قليلا عن الفيلم الذي حاز على جائزة العيد الستيني. يمكن النظر الى (بارانويد بارك) بوصفه نسخة سالبة لفيلم (الفيل) الحائز على السعفة الذهبية عام ٢٠٠٣ والذي يستذكر مذبحة مدرسة كولومبيا. مثل هذه الأفلام (التوائم) تتكامل في تمايزها بالذات داخل الثيمة نفسها وفي تناولها لهموم فئة عمرية محددة، وهي هنا فئة المراهقين. كان (الفيل) يتتبع منحنى السير نحو العدم فيما يتخذ (بارانويد بارك) خط السير نفسه عكسيا بالسعي للخروج من العدم الى الوجود ومن الموت الى الحياة. الفيلم مقتبس من رواية بالعنوان نفسه للكاتب (بليك نيلسون) وتدور أحداثها في بورتلاند حيث ولد ونشأ الكاتب. البطل أليكس (يمثل دوره غيب نيفينز) مراهق تخالط سلوكه طفولية، أشقر، قسمات وجهه ذات جمال غريب، منطو وبالغ الحساسية، يمضي خلال الحياة والحكاية معا على زلاقة بعجلات. والداه مطلقان، غائبان عن الحدث تقريبا، وله صديقة يبدو أنها متحمسة لفقدان بكارتها أكثر من تحمسها لعلاقة حقيقية. لاوجود لأصحاب ثابتين، الحصيلة توحد شاسع. طريق الحكاية درب تخطه زلاقات الصبية في حي سيئ السمعة حيث يقضي صاحبنا أمسياته يراقب أبطال الرقص على الزلاقات، وبضعة فتيان يدعوهم للتعلق بالقطارات وهي تسير على السكك، لعبة غير حكيمة ولكنها تعني الشيء الكثير لمن لاوجود في عالمه غير التزلق، وذات يوم يشاهدهم حارس ليلي فيأخذ بالركض خلفهم وضربهم لجعلهم يتركون التعلق بالقطار فما كان من أليكس ألا أن يدفعه فيسقط الرجل ويدهسه قطار آت من الأتجاه المعاكس ويشطره الى نصفين في لقطة جمالية صورية بارعة، هذه اللقطة كأنها البؤرة التي يمتد حولها نسيج الحكاية، رمزيتها، بهذا يتخذ (بارانويد بارك) صيغة التنافر والتعارض، بين تكتم أليكس المتزج بالشعور بالذنب أزاء مساعي المحقق الذي أرسل الى المدرسة للكشف عن الحقيقة وبين الموسيقى التصويرية الكاشفة والمعبرة . لقد نفذ المخرج بكاميرته (سوبر ٨) غوصا فنيا في عالم المراهقة، وكان يمكن للفيلم أن يسقط في الشكلية لو لم ينته الفيلم برؤية شابة ساخرة تتعرف بأليكس وتكون علاقتها به بمثابة دعوة الى حياة أخرى تؤخذ فيها الأمور ببساطة وحب.